

# كنت شابا قبل ربع قرن

عبدالرزاق الربيعي

في طفولتي، حينما سمعت المطرب الريفي  
داخل حسن « يردد بأسى بيت أبي العتاهية:

الا ليت الشباب يعود يوما  
لأخبره بما فعل المشيبُ

لم أكن أتخيل، أنّ الإنسان يمكن له أن يحزن إلى هذا الحد لذهاب  
مرحلة من عمره، وهو حزن لم تنفع معه جرعة الأمل التي تعطيها كلمات  
الخليفة العباسي المستنجد بالله، التي رددتها حنجرة ناظم الغزالي:

عيرتني بالشيب وهو وقار

ليتها عيرت بما هو عار

إن تكن شابت الذوائب مني

فاليالي تزينها الأقمار

ويظلّ الشيب، في حالات كثيرة، نذيرا بأقول عهد الشباب الذي يظلّ  
عهد الحيويّة، والنشاط، وربيع العمر، وهو الكتلة الحرجة التي تحمل  
أهم فرص نماء المجتمع وصناعة مستقبله، كما يقول مصطفى حجازي،  
ومن البديهي أنّ تختلف معايير تحديد هذه المرحلة، من مجتمع لآخر،  
ففي المجتمع البدوي يكون النضج أسرع تبعا لطبيعة الحياة القاسية،  
ولكن الأمم المتحدة حدّدت الشباب بمن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٤  
سنة، وفي نظر علماء الاجتماع «أن فترة الشباب تبدأ من خلال دخول  
الفرد إلى المجتمع الذي يحاول بدوره إدماجه، وتأهيله ليؤدي عمله  
داخل المجتمع، ثم تنتهي بعد أن يحتل الفرد مكانة اجتماعية يكون فيها  
قادراً على تأدية الدور بشكل مقبول ضمن النظام الاجتماعي»، ولكن هل  
حقاً يمكن لها أن تنتهي، كما يقول علماء الاجتماع، والأطباء؟

أشكّ في هذا، رغم إيماني بأنّ لكلّ شيء نهاية، ولكن، بالوقت نفسه  
،نهاية هذا العهد، ليس نهاية العمر، ولدى البعض ممن ينظرون للنصف  
الممتلئ من الكأس، أنّ الشباب بلا نهاية، كونه مرحلة عمرية عندما  
تبدأ، نعرف أنّها بدأت، ولكن، لا أحد يعرف متى تنتهي، ومتى تنطفئ  
شعلة الشباب، فقد تنتهي في الأربعينيات من عمر الإنسان، وقد تمتدّ  
إلى الخمسينيات، وربما الستينيات، فالشباب «شباب الروح»، كما  
يقال، ولكي يستمر الشباب ينبغي تعميق الإحساس بوجوده كحقيقة،  
فمزاج الجسم تابع لـ«مزاج النفس»، كما يقول أبو بكر محمد بن زكريا  
الرازي، أعظم أطباء العرب والمسلمين، الذي أكد على التوازن القائم  
بين النفس، والجسد، وقام بإبراز الصلة بينهما، وهذا الإحساس ليس



كافيا، بل ينبغي أن ترافقه رغبة مستمرة للجّد، وسعي متواصل لذلك،  
من خلال ممارسة الرياضة، والسفر، وتغيير العادات الحياتية بين  
وقت، وآخر، وتقوية الجانب الروحي، الذي يعطي طاقة للجسد، ويجعله  
قويًا، مثلما ينبغي ذلك للجسد الذي هو الوعاء الذي  
توضع به طاقة النفس.

بالنسبة لي، فقد أحسست بوهج الشباب مع سماعي أصوات القصف،  
وصافرات الإنذار، وأزيز الرصاص، وانطلاق الصواريخ المضادة  
للطائرات، وتشكّل سحب الدخان في سماء بغداد، وانتشار لافقات الموت  
السود في الشوارع، ومفارز التفيتش، وجنائز الشهداء عند اندلاع حرب  
الخليج الأولى في ١٩٨٠، التي استمرت ثمان سنوات، احترق خلالها  
الأخضر بسعر اليابس، ومن ثم نشوب حرب الخليج الثانية، عام ١٩٩١  
م وإقرار الحصار على العراق، ومن ثم مغادرة بلدي، إلى المجهول  
عام ١٩٩٤م، حيث سنوات الغربة، والصراع المتواصل في معترك  
الحياة اليومية من أجل تأمين قوت اليوم، من حيث يأتي قول المتنبي:

بم التعلل لا أهل ولا وطن

ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وما تبع ذلك من تأخر في الزواج، لعدم وجود الاستقرار اللازم لذلك،  
وهذه ليست كلّها منغصات، بل جعلتها لصالحني، فقد خدمتني مرحلة  
الشباب في تجاوز كلّ الصعوبات التي واجهتني، كونها مرحلة القوة،  
والمغامرة، وتحمل الصعاب، وقهرها، وهذه من حسنات الشباب،  
بينما من الصعب على من تجاوزها أن يواصل المواجهة التي تحتاج  
إلى صبر، وثبات، وعناد.

مرحلة الشباب ليست كلّها مرحلة نعيم، واسترخاء، بل مرحلة جدّ،  
واجتهاد، ومثابرة، ومن لا يبني له موقعا في مرحلة شبابه، من الصعب  
له، أن يبنيه بعد ذهاب الشباب.



ومع كلّ ما مررت به في تلك المرحلة الشاقّة من عمري، أستطيع القول  
إنّني عشت المرحلة، وأشهد على ذلك، كما فعل الشاعر التشيلي بابلو  
نيرودا في عنوان كتاب سيرته «أشهد إنّي عشت»، وهذا لم يكن بالأمر  
اليسير، فالواقع يملي عليك شيئا، وروحك تسعى إلى أن تعيش المرحلة  
بشكل طبيعي، فمن فاته أن يعيش تلك المرحلة سيعاني من الاضطراب  
النفسي، وسيعيشها لاحقا كما فعل أوسكار وايلد حين قال «كنت شيخاً  
في الشباب، فلا عجب أن أكون شاباً في الشيخوخة»، لذا، فإنّ عيش  
المرحلة كما تملي عليك الطبيعة، سيجعل الإنسان ينشأ نشأة سوية،  
وفي الحديث الشريف «اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك،  
وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك  
قبل فقرك»

وكان النحات العراقي يحيى جواد الذي عانى من الشلل يردد «استثمر  
كلّ حواسك، وطاقتك قبل فقدانها، أو انطفاء وهجها»، هذا الوهج، هو  
وهج الشباب، الذي ينبغي أن لا نسمح بتسرّبه من بين أيدينا، كون لا  
يعوّض إن مضى، فهناك «مياه تسير باستمرار في النهر الواحد الجاري،  
حسب قانون التغيّر والتبدّل لهرقليطس ولذا، فلا يمكن النزول مرتين  
في النهر الواحد الجاري، وكما يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:



فتمتّع بالصّبح ما دمت فيه

لا تخف أن يزول حتى يزولا

كن غديرا يسير في الأرض رقراقا

فيستقي من جانبه الحقولا

تستحم النّجوم فيه ويلقى

كلّ شخص وكلّ شيء مثيلا

لا وعاء يقيد الماء حتى

تستحل المياه فيه وحولا

كن مع الفجر نسمة توسع الأزهار

شما وتارة تقبّلا

فكنت أحاول، مع مجموعة من أصدقاء تلك المرحلة، أن نفعل كلّ  
ما في وسعنا من أجل أن نعطي للمرحلة حقّها، رغم قسوة الظروف  
المحيطة التي كانت تحاول أن ترخّل مرحلة الشباب، وتطمسها، من  
حيث أنّ «النبته العنيدة تطلع حتّى من بين الصخور»، واليوم وأنا أنظر  
من خلال شرفة الخمسين، إلى الوراء، أشعر بارتياح، كوني حاولت أن  
أنتزع شبابي انتزاعا من بين أنياب «ذئب ترصده»، لكي لا أتحرّر على  
ما فات، حينما لا ينعف الندم، فأردد مع داخل حسن:  
الا ليت الشباب يعود يوما....